الجزء ٨ المجلد ٦

مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق) آب سنة ١٩٢٦ م الموافق محرم وصفر سنة ١٣٤٥ هـ

إعراس[1] الخليفة المأمون

« بوران بنت الحسن سنة ٢١٠ هـ »

ايها السادة :

نستأذنكم في بيانٍ لا بد منه . نجعله تمهيداً للوصول الى ليلة العرس وهو ينطوي على التعريف بالعريس ، وقد لا يوجد بيننا من يجهل صاحب هذا الاسم العظيم ، الا ان في تعريفنا فائدةً وفكاهةً غير خارجتين عن موضوع محاضرتنا .

وفي علمكم ان الدخول على العظماء من السلاطين والامراء ، لم يكن مباحاً الا بعد الاستئذان ، وانتظار الايام الطوال . لصدور الاوامر الملوكية ، ثم لا يتم ذلك الا بعد المرور في الساباطات والاقباء . ودخول القصور والتقدم في متعددةِ الأفنية والرِدَاء والأبهاء ، الى ان يُبشَّر بالوصول الى بهو السُدَّة . ومعاينة صاحب السرير ، ونحن سنسير على هذا النحو ، فننتقل من تعريف الى تعريف ، حتى نصل الى وصف ذلك العرس الشريف .

اما المدة او المسافة التي بيننا وبين ليلة العرس فهي الف سنة ومئة واحدى وثلاثون سنة (١١٠٦ مسيحية) وهي مسافة شاسعة لا يمكن قطعها في ليلة واحدة ، بل لا بد لنا من تجاوز هذه المدة ايضاً الى ما قبلها بمئتين واربع عشرة سنة ، فتكون

(١) محاضرة الاستاذ المحقق قسطاكي بك الحمصي احد اعضاء المجمع العلمي تُليت باسمه في ردهة المجمع بدمشق يوم ٢٨ ايلول ١٩٢٣ م .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

جملة المسافة التي نجتازها للوصول الى بدء تأريخنا ، الفا وثلاثمائة واحدى وستين سنة هجرية (١٣٢٠ مسيحية) .

ولا يهولنكم قطع هذه المسافة الشاسعة ، فاننا في عصر الكهرباء ، وسنجاري الكهرباء بسرعتها ، فنقطع كل سنة بثانيتين .

للأمم وملوكها ودولها تواريخ مجهولة ، وتواريخ معلومة ، اما المجهولة فهي المدد التي عاشت فيها تلك الامة دون دول وملوك ، وكانت في حالة الهمجية ، واما تواريخها المعلومة ، فالقديمة منها ما وصلت الينا أخبارها وشاهدنا بعض آثارها ، كالدول المصرية القديمة . واليهودية . والكلدان . والاشوريين . والحثيين . وفارس . واليونان . والرومان . والعرب . وكثير غيرها ، وكلها قد باد ملكها وزالت دولها ، وتشعبت شعوبها او انقرضت وضاعت لغاتها اكثرها حتى لم يبق على وجه الارض فرد ينطق بها او يقرأ كتاباتها او يحل رموزها ، ولا يُستثنى من مئات تلك الامم ، الا امة واحدة ، هي الامة العربية ، أمتكم .

« الامة العربية »

هذه الأمة أقدم الأمم من بعد قوم نوح ، وأعظمهم قدرة . وأشدهم قوة . وآثاراً في الارض ، واول أجيال العرب من الخليقة ، وكان لهم ملوك ودول في جزيرة العرب ، وامتد ملكهم الى الشام ومصر وقيل ان فراعنة مصر منهم ، ويقال انهم انتقلوا الى جزيرة العرب من بابل لمزاحمهم فيها بنوحام ، ثم كان لكل فرقة منهم ملوك وحصون وقصور وابنية مرتفعة ، وكانت مواطنهم بين اليمن وعُمان الى حضرموت والشَحْر ، وقوم منهم العماليق اختطوا يثرب ، ومن العرب بنو ثمود وكانت ديارهم بين الحجاز والشام وكانوا ينحتون بيوتهم في الجبال ، وهؤلاء كلهم يسمون العرب العاربة او العرب البائدة لطموس اخبارهم وبُعد تواريخهم وهم الطبقة الاولى من هذه الامة .

اما الطبقة الثانية منها وتسمى العرب المستعربة ، فأشهر ملوكها يعرب بن قحطان واشهر شعوبها حمير وكهلان .

واما الطبقة الثالثة فتسمى العرب التابعة للعرب وهم من البادية اهل الخيام لم يزالوا من أعظم أمم العالم واكثر أجيال الخليقة ، ينتهي اليهم العز والغلبة بالكثرة ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فيظفرون بالملك ، ويغلبون على الاقاليم والأمصار ، ثم يهلكهم الترفه والتنعم فيُغلبون .
وهذا كله ملخص عن ابن خلدون وهو من ثقات المؤرخين .

ولقّب العرب بعد الاسلام من كان قبلهم على أُمتهم بالجاهلية ، اختصوا بذلك عبدة الاصنام والمشركين ، اذ انهم كانوا يعلمون ان قبائل خيبر يهودٌ عرب مثلهم ، وعرب الشام نصارى وكان لهم قبل ذلك ملك الحجاز ، وكلاهما اهل كتاب .

ولكن هذا اللقب لا يصدق ايضاً على عبدة الاصنام والمشركين من العرب اللهم الا من قِبَل تمسكهم بعباداتهم بعد الاسلام ، اوجهلهم الكتب المنزلة ، قال في كتاب موسوعات العلوم الكبيرة الفرنسوية ما تعريبه : ان هذا النعت لا يطابق الحقيقة ، اذ للبدو معرفة واسعة بالانساب وكل ما يتعلق بالتاريخ ، وكانوا يعرفون مراقبة سير النجوم ، بل فوق ذلك كله كانوا يقرضون الشعر المتخيل اللطيف ، وهو ما لا يتفق مع الخشونة التي أُلصقوها بهم ، ثم انه وان كان الكلام عن عامة العرب ، فيجب ان لا يفوتنا ان العرب كانوا قسمين ، قسماً ظاعناً ، وقسماً مقيماً ، فالمقيمون منهم كانت لهم مدن في الامصار العربية ، وهؤلاء أدركوا شوطاً بعيداً من المعارف . انتهى كلام الموسوعات .

وان أُمة بنت سد مأرب ، وقصر غمدان ، وضربت السكة ، ونقشت عليها صور ملوكها ، واخترعت الحروف الحميرية ، وكتبت وحفرت كتاباتها على الحجر وغيره ، وهي بين أيدينا بعد عشرين قرناً ، نقول ان أُمة كهذه قد اتقنت ولا ريب فن الهندسة ومايتعلق بها ، ورصدت النجوم ، وقرضت محاسن الأشعار ، وبرعت في غير ذلك من العلوم والصناعات ، لانكر عليها المدنية كما انكرها عليهم بعض علماء المشرقيات في الغرب ، ومنهم العلامة (پرؤ Preux) ، الا انه لم ينكر مدنية الشرق الاسلامي كما تغالى بعض متعصبي الفرنجة ، فأنكر الهندسة العربية ، والعربية الاسلامية وآثارها ماثلة للعيان في الاندلس وغيرها ، ولكن لاعبرة بقول من يجحد المنظورات ولله در القائل :

ويظهر الجهل بي وأعرفه والدرّ درٌّ برغم من جهله

هذه أيها السادة مقدمة إجمالية ، في اولية الامة العربية ، ولما كانت جميع الدول العربية السابقة الاسلام ، كالعيون بالنسبة الى الاوقيانوس ، او كالبروق في ظلمات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الليالي ، بجانب الشمس المنيرة يجمل بنا ان ننظر في أولية الدول العربية ومنشئها :

خذ ما نظرت ودع شيئاً سمعت به في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل

« دولة الخلفاء الراشدين »

اول عظيم قام في العرب ، هو ولا ريب النبي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم الى عبد مناف فما فوقه . ثم خلفه بعد وفاته ابوبكر الصديق ، ثم خلفه عمر ابن الخطاب ثم عثمان بن عفان ، ثم علي بن ابي طالب . وهذه هي الدولة العربية الاولى في التاريخ الاسلامي ، بدؤها منذ اعلان محمد نبوءته ، وذلك لستمائة وعشرين سنة مسيحية اي بعد مولده الشريف باثنتين واربعين او احدى واربعين سنة الى وفاة الامام علي مقتولاً وذلك سنة ٦٦٧ فتكون مدتها نحو سبع واربعين سنة . فتمت بها هذه الدولة البدوية ، اليمن والعراق والشام (اي سورية) بفلسطينها ، وممالك فارس وارمينية ومصر وطرابلس الغرب وبلاد اذربيجان وافريقية والاندلس وقبرس والافغان .

« بدء الدولة العربية الثانية دولة بني أمية »

في السنة الاربعين من الهجرة وهي السنة السابعة والستون بعد الستمائة للمسيح ، بويع بالخلافة في بيت المقدس اول من أسس دولة بني أمية وجعل سرير الخلافة في دمشق .

ومعاوية هو السلطان العظيم داهية رجال العرب معاويةُ بن ابي سفيان صخر بن حرب بن أمية الذي يُنسب اليه الأمويون ، ملك ثماني عشرة سنة ، وكان في الحلم غاية لا تُدرك ، ومما يؤثر من كلامه قوله : اني لأرفع نفسي من ان يكون ذنبٌ أعظم من عفوي ، وجهلٌ اكبر من حلمي ، وعورةٌ لا أواريها بستري ، وإساءةٌ اكثر من احساني » وأغلظ له القول رجل ، فقيل له : « أتحلم عن هذا ؟ فقال اني لا احول بين الناس وألسنتهم ، ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا » .

وهو اول خليفة في الاسلام ، بايع ولده واكره الناس على مبايعته واولُ من استعمل الحجاب على بابه من ملوك العرب ، واول من اتخذ منهم ديوان الخاتم وحزم الكتب اي ختمها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن مُلح التاريخ ان عامله على مصر عمرو بن العاص أول ما قدم عليه في جماعة من اكابر مصر قال لهم عمرو قبل دخولهم على معاوية : لا تسلموا عليه بالخلافة — اي لا تقولوا له السلام على أمير المؤمنين — ذلك أهيب لكم في قلبه وصغروا ما استطعتم ، وبلغ ذلك معاوية فأوصى حجابه ان يتعتعوهم أشد ما يكون قبل دخولهم عليه ، اي ان يسترهبوهم و يستنزلوا الرعب والخوف على قلوبهم فيتلعثمون ، اي يستولي عليهم العي والحصر فيترددون في كلامهم ، فقال اولهم عند دخولهم السلام عليك يا رسول الله وتتابع القوم على ذلك ، فلما خرجوا قال لهم عمرو لعنكم الله نهيتكم ان تسلموا عليه بالإمارة فسلمتم عليه بالنبوة .

وخلفه بعده ابنه يزيد ملك ثلاث سنين وتسعة اشهر واياماً . ثم ملك بعده ابنه معاوية الثاني أقام اربعين يوماً ومات . وتولى الخلافة بعده مروان بن الحكم بن أمية وأقام عشرة اشهر وتوفي . ثم خلفه في الملك بعده ابنه عبدالملك ، وكان من اعظم بني أمية بطشاً ، واوفرهم دهاء ، واكثرهم حروباً ، واشدهم شجاعة وحزماً ، واغزرهم علماً وعقلاً ، وهو اول من ضرب الدنانير والدراهم في الدول العربية بعد الاسلام ، واول من نقل الديوان ، اي حسابات الدولة من الفارسية الى العربية ، واول من نهى عن الكلام في حضرة الخلفاء ، وكانت مدة ملكه عشرين سنة وخمسة اشهر ودفن بدمشق .

ثم خلفه ابنه الوليد وكان جباراً عنيداً ، وكانت مدة ملكه تسع سنين واربعة اشهر واياماً . ثم خلفه اخوه سليمان وملك سنتين وسبعة اشهر . ثم خلفه ابن عمه عمر ابن عبدالعزيز بن مروان ، ظل سنتين واربعة اشهر ، ودفن بدير سمعان ، وبه وبعمر ابن الخطاب جرى المثل بعدل العمرين . ثم خلفه يزيد بن عبدالملك وأقام اربع سنين . ثم خلفه اخوه هشام وأقام تسعة عشرة سنة واياماً ودفن بالرصافه . ثم تولى بعده الوليد بن يزيد بن عبدالملك أقام سنة وشهرين ونيفاً وقتل بدمشق . ثم تولى يزيد بن الوليد أقام خمسة اشهر واياماً . ثم خلفه ابراهيم بن الوليد أقام سبعين يوماً وخلع نفسه . فخلفه مروان الثاني أقام خمس سنين الا عشرين يوماً ، وكان شجاعاً حازماً ، الا ان ايامه كانت ايام فتن وحروب ، قُتل بآخرها في كنيسة من بوصير بصعيد مصر ، وكان هارباً من وجه العباسيين ، وهو آخر خلفاء هذه الدولة ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وعدتهم اربعة عشر خليفة . بنوا المدن ، ومدنوا القبائل وغزوا وفتحوا ، وعمروا بلاداً عديدة ، ومدوا ملكهم الى الهند بآسيا ، والى صقلية اي سيسيليا باوربا ، والى اقاصي المعمور من افريقية في مدة تسعين سنة فقط .

« الدولة الثالثة وهي دولة العباسيين »

بُدئت بابي العباس الملقب بالسفاح لكثرة من قتل في اول دولته وسميت بالعباسية نسبة الى جد هذا البيت ، العباس من بني هاشم ، وبنو هاشم وبنو أمية ينتمون جميعاً الى عبد مناف ، وكلهم من قبائل قريش ، ويدعي الهاشميون الرئاسة وتعترف لهم بها قريش كلها الا ان بني أمية كانوا اكثر عدداً من بني هاشم ، والعزة بالاكثر ، ولم قبل الاسلام شرف معروف ، فوصل معاوية الى الخلافة بذلك ، وأسس قواعد الدولة الأموية ، فكان بين العباسيين وبين الأمويين منذ تبوأ معاوية الخلافة ، مايكون بين بيوت الملك في الدول ، من التحاسد والتضاغن ، وكان العباسيون لايفترون هم وقومهم من بني هاشم ، عن نصب المكائد ، وتسعير الفتن وايغار الصدور ، والطعن على اعمال الأمويين وعمالهم ، والادعاء عليهم باغتصاب الخلافة من بيتهم ، وكان الأمويون يشددون على بني العباس وشيعتهم ، بين سجن وتعذيب وقتل كلما رابهم منهم مريب ، وكان بين البيتين من الوشاة والحساد والمفسدين ، مايكون مثله في قصور الملوك ودور الامراء ، سنة في الخلق وخليقة من طبائع العمران .

ولم تعدم دولة الأمويين خلفاء يُعدّون من أعاظم ملوك الارض دهاء وتدبيراً وحزماً وعدلاً ، كعبدالملك بن مروان وابنيه الوليد وهشام وعمر بن عبدالعزيز ، كما انها لم تخل من خلفاء أبطرهم الملك فأفسدوا وأساؤا كالوليد بن يزيد ، وكانت اتسعت فتوح الدولة الأموية وامتد ملكها امتداداً لايصونه ، الا العدل والقوة والتدبير ودهاء السياسة . وكان دعاة بني العباس منذ زمن طويل قد انتشروا في الحجاز والعراق وبلاد فارس ، يبثون الدعوة للعباسيين ، ويفسدون على الأمويين اعمالهم ، ويطعنون فيهم وفي عمالهم حتى انحرفت عنهم اكثر قلوب الامة .

ولما استوثق السفاح من شيعته ، جاهر بدعوة الخلافة لنفسه ، فبايعه الناس بالكوفة وغيرها في السنة الثانية والثلاثين بعد المئة للهجرة ، وهي تقع في الخمسين بعد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

السبعمائة للمسيح ، وظلت خلافتهم في بغداد خمسمائة واربعاً وعشرين سنة ، تولاها سبعة وثلاثون منهم ، ثم انتقلت الى مصر وتولاها فيها ثلاثة عشر خليفة منهم ، خلافة لم يكن لهم منها غير الاسم .

أقام السفاح اربع سنوات وأشهراً وتوفي سنة ١٣٦ (سنة ٧٥٤م) . ثم خلفه اخوه ابو جعفر المنصور ، كان مهيباً شجاعاً يقظاً مدبراً عالماً فصيحاً ، داهية ظالماً بخيلاً ، بنى مدينة بغداد ومهد اطراف ملكه الشاسع ، وترك عند موته خزينة الملك مملوءة من أموال الخراج والمظالم ما يكفي خلفه عشر سنين ، بعد ان أقام في الخلافة اثنتين وعشرين سنة وتوفي للثامنة والخمسين بعد المئة (سنة ٧٧٦م) . ثم خلفه ابنه المهدي ملك تسع سنين وعشرة اشهر ، وكان حليماً كثير العفو عن المذنبين ، باهر الجمال ، توفي مسموماً على اصح الروايات للتاسعة والستين بعد المئة (سنة ٧٨٦م) .

ثم خلفه ابنه موسى الهادي ملك سنة وثلاثة اشهر ، وكان جواداً فصيحاً عالماً مهيباً ، مات مسموماً في السبعين بعد المئة (سنة ٧٨٧م) .

اما هرون الرشيد فهو ابعد ملوك الارض صيتاً ، وأعظمهم همةً ، واكثرهم غزواً ، وأوفرهم حباً للأدب والشعر ، وأشدهم كرماً ، كان داهيةً باحوال السياسة ، شديد البطش ، عالماً ناصراً للفنون ، شاعراً محباً للعمران والحضارة ، زين بغداد بالقصور المتعددة ، والمباني الفخمة ، والمصانع النافعة ، والمدارس والمساجد ، وبنى مدينتي الرقة والهارونية ، ولم تزل أطلال قصره وبعض جدرانه قائمة الى اليوم في الرقة . وقد شاهدتها وعدت عنها حزيناً .

ولم يسبقه احد من ملوك الارض بفرط تكريم العلماء والشعراء ولم يحاكه احد بوفور الانعام عليهم ، وكان موفقاً محظوظاً .

فقد ازدان ملكه بوزرائه بني برمك الذين كانوا من محاسن الدنيا عقلاً وحكمة ، وادباً وجوداً ، ثم نكبهم نكبة تناقلتها القرون ، لاستبدادهم بالملك والملك عقيم .

الا ان بعض مؤرخي الفرنج — ومتأخرهم ينقل عن متقدمهم ما يروونه عن العرب دون تمحيص — لم ينصفوا الرشيد فأكثرهم يصفه انه كان أثراً ظالماً عتياً ، يستشهدون بايقاعه بالبرامكة وبما حكاه القُصاص من العرب عن نكبتهم ، وما تكهنوه لها من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الاسباب التي تخالف كل قياس منطقي ، وذلك نقلاً عن ألسنة العامة بعد وقوعها بزمن طويل . اذ اننا لم نجد مؤرخاً ثقةً نقل حقيقة السبب الذي حدا الرشيد الى ذلك القصاص الشديد بعد علو القدر وجلالة المنزلة التي كانت ليحيى البرمكي واولاده عنده ، وأحسن ما قرأته عن ذلك وأحسبه أقرب الى الحقيقة من كل ما روي ، ما ورد عن سعيد بن سالم وقد سُئل عن جناية البرامكة فقال ماتحصيله : ان الرشيد رأى كثرة حمد الناس لهم ورميهم بآمالهم دونه . والملوك تتنافس باقل من هذا ، الى ان قال ووقع منهم بعض الادلال خاصةً جعفر والفضل دون يحيى : فانه كان أحكم خبرةً واكثر ممارسةً للامور ، ولاذ بالرشيد من اعدائهم كالفضل بن الربيع فستروا المحاسن وأظهروا القبائح .

هذا ما ظهر لهذا الرجل ، وما يدر بنا ما ثبت عليهم عند الرشيد من الذنوب والجنايات ، كإصدار امرٍ او نهيٍ باسم الخليفة دون مشورته ، اواستخفاف باوامره ونواهيه ، ولعل هذا كل السبب في ذلك كما يفهم من اطلاق جعفر ليحيى بن الحسين وكان خارجاً على الخلافة ، ولما سأله عند الرشيد أقسم له برأسه انه لم يزل محبوساً ، وكما يفهم من الابيات التي رفعت الى الخليفة وهي :

قل لأمين الله في ارضه ... ومَن اليه الحلُّ والعقدُ
هذا ابن يحيى قد غدا مالكاً ... مثلك ما بينكما حدّ
امرك مردودٌ الى امره ... وامره ليس له ردّ
وقد بنى الدار التي ما بنى ... فرسٌ لها مثلا ولا الهند
ونحن نخشى انه وارثٌ ... ملكك ان غيّبك اللحد
ولن يباهي العبد أربابه ... الا اذا ما بطر العبدُ

ونحن نرى في هذه الحكاية ووراء هذا اللفظ يداً بل أيدياً عباسية ، وصدوراً مُلئت حقداً على جعفر وغيرةً منه ، ونفساً هاشمياً ، والناقد البصير يرى في صلب جعفر وحبس ابيه وأخيه وسائر قرابتهم ، ما يؤكد ان ذلك القصاص الشديد كان فمعاً لفتنة كامنة ، وقطعاً لالسنة طاعنة ، وردعاً لكل استخفاف بسلطان الخلافة ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد حُظر على الناس التحدث بذلك يومئذ كما يفهم من قول الشاعر الرقاشي في رثاء البرامكة :

فلم ار قبل قتلك يا ابن يحيى حساماً فلّه السيف الحسام
اما والله لولا خوفُ واشٍ وعين للخليفة لا تنام
لطفنا حول جذعك واستلمنا كما للناس بالحجر استلام

ووقع أمثال هذه الحادثة بعدها في كثير من دول الغرب ، ورأى غير واحد من مؤرخيهم عدالة ذلك القصاص في شرع السياسة . على ان أدق من نظر من المؤرخين في هذه الحادثة نظراً سياسياً مطابقاً لعادات ذلك العصر وشؤونه ، ودحض هذر القصاص ، هو الفيلسوف ابن خلدون ، وبهذا كفاية للرد على أقوال بعض المؤرخين من الفرنجة وغيرهم .

ولنعد الى تتمة الكلام على هارون الرشيد فقد تحلى بلاطه بعظماء الرجال من كل فن ، فمن أطبائه آل بختيشوع ، ومن شعرائه ، ابو نواس . وابو العتاهية . ومسلم ابن الوليد . والعباس بن الاحنف وأضرابهم ، ومن القُصّاص الخليل بن احمد واضع العروض . والاصمعي ، ومن الندماء ابراهيم الموصلي . وزلزل . وابن جامع . وابن ازفّ وأضرابهم ، وقضاته ابو يوسف يعقوب الانصاري وابنه يوسف . وابو البختري وهب القرشي وأمثالهم ، ومن العلماء سيبويه . وابن يونس ، ومن الأئمة ابوحنيفة . والشافعي . والامام احمد بن حنبل . ملك اثنتين وعشرين سنة وسبعة اشهر شمسية وتوفي للسنة الثالثة والتسعين بعد المئة للهجرة (٨١٠م) في طوس ودفن بها . وأجمع المؤرخون على ان الرشيد ترك في بيت المال تسعمائة الف الف دينار ، والدينار يساوي مثقالاً ذهباً او نحو ليرة فرنسوية ، ولعل الاصل تسعون الف الف اي تسعين مليوناً .

وقال ابن خلدون وهو ثقة : رأيت في بعض تواريخ الرشيد ان المحمول الى بيت المال في ايامه سبعة آلاف قنطار وخمسمائة قنطار في كل سنة انتهى قوله . والقنطار فيما ذهب اليه المحققون اربعة آلاف دينار ، فتكون جملة ذلك ثلاثين مليوناً من الدنانير ، وهو مبلغ لا يستكثره مَن وقف على سلطان الدولة العباسية . وقد كانت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الدولتان العربيتان قبلهـا مهدتا لها الملك الشاسع ، فاستباحتا لها ملك فارس والروم اهل الدولتين العظيمتين في العالم لذلك العهد ، والترك بالمشرق حتى الصين ، والفرنجة والبربر بالمغرب ، والقوط (الكوت) بالاندلس ، وخطت جنود العرب من الحجاز الى السوس الاقصى ، ومن اليمن الى الترك باقصى الشمال واستولت على الاقاليم السبعة . وكانت لعهـد الرشيد تحمل المكوس والضرائب والجزية والخراج الى بيت المال من الهند والصين ومصر وفارس وسورية وغيرها .

ثم خلفه ابنه محمد الامين أقام في الملك اربع سنين وخمسة اشهر او تزيد ، وكان شجاعاً اديباً شاعراً ، محباً للهو ناقص التدبير ، فاختل الملك ، وسعى الوشاة بينه وبين اخيه المأمون ، ففسد مابينهما ، وكثرت الفتن وقامت الحرب بينهما ، وقتل في آخرها الامين وذلك سنة ١٩٨ (٨١٤م) .

ثم قام في الملك بعده بطل محاضرتنا امير المؤمنين ابوالعباس عبد الله المأمون السابع من بني العباس . واذ وصل بنا الحديث الى خلافة المأمون ، فيجدر بنا ان نلقي نظرة إجمالية على بسيط مملكة الممتد الاطراف ، البعيد الاكناف ، ثم على دخل خزينته ، ليكون السامع على ثقة بما نرويه عن نفقات ذلك العرس ، وهو مما لم يرو له شبه في تاريخ أمة من الامم ، ثم نلمح بغداد مقر الخلافة العباسية لمحة سريعة لنعلم كيف كانت لعهد ذلك العرس ، ثم نلم بشيء من صفات المأمون واخلاقه وعلومه وغزواته ، ثم نتعرف بحمي الخليفة وهو الحسن بن سهل ، ثم ببوران ابنته عرس المأمون .

« المملكة العباسية »

كانت المملكة العباسية لعهد المأمون ممتدة في آسيا من بغداد وسائر العراق الى الحجاز واليمن وفلسطين والشام (اي سورية) وارمينية ومملكة فارس (ايران) وافغانستان وقسم من الهند والصين ، ثم مصر في افريقية واكثر اليمور منها ايضاً ، قال ابن خلدون : وجد بخط احمد بن محمد بن عبد الحميد عمل (اي حساب) بما يحمل الى بيت المال ببغداد ايام المأمون من جميع النواحي نقلته من جراب الدولة (اي دفتر) وعدد الغلات بلداً بلداً ومملكة مملكة فبلغت ثلاثة ملايين وثمانمائة وسبعة عشر الف دينار ومائتي مليون وسبعة وستين مليوناً وثمانمائة وخمسة وعشرين الفاً وثمانية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

دراهم اه . فاذا حسب الدرهم عشر الدينار حسب رواية ابن خلدون وغيره ، كان مجموع الدخل في تلك السنة ثلاثين مليوناً من الدنانير ، ما خلا الوفاً من سبائك الفضة ، والوفاً من الحيوان كالخيل والبغال والابراذين والبقر والغنم ، والرقيق والثياب والاكسية الحريرية والزيت والعسل والعود الهندي والفرش والبسط والتمر وعطر الورد والسكر وغيره ، وذلك كما كان لعهد ابيه هرون الرشيد حسبما بيناه بل ربما زاد عنه ، وهذه الاموال كانت تحمل الى بيت المال من العمال والولاة في تلك الاقطار ، وكان الخليفة يولي عليها كبار الرجال والقوّاد من اهل بيته ، او ممن لهم سابقة خدمة في الدولة من اهل الكفاية والتدبير ، وهؤلاء يولون من هم دونهم من ذويهم وصنائعهم على جباية الخراج ، وكانوا في الغالب يجعلون الجباية إقطاعاً اي التزاماً او مزايدة ، كما اشير ليومنا هذا ، ولما كان الظلم من الاخلاق الانسانية ، والامانة عزيزة في الطبائع البشرية ، وكانت الفتوح في ذلك العهد وقبله كثيرة ، وطرق الكسب والغنائم سهلة متوفرة ، فكان كسب الولاة وعمالهم يومئذٍ مما لا يكاد يصدق لو لا ما لدينا من الحقائق التاريخية التي لا ريب فيها .

وكان للدولة العباسية خزانة أخرى تسمى بيت مال المظالم ، وهي الاموال التي كان يستصفيها الخليفة من وزرائه وعماله ، او التي كان يغتصبها الولاة والعمال ممن هم دونهم عند الارتياب بامانتهم ، او الطمع بثروتهم ، فيُنزلون عن مراتبهم ويسجنون ، وعاقبة ذلك في الغالب القتلُ صلباً او خنقاً ، وتُستصفى أموالهم من صامت وناطق ، وأملاكهم جميعها وتحمل الى بيت مال المظالم . واما ما كان هنالك من كنوز الأموال والدرر النادرة ، والجواهر الفريدة ، وغرائب التحف الثمينة ، وعجائب المصنوعات فحدث عن البحر ولا حرج ، ومثل هذا كان جارياً لذلك العهد وبعده ، في سائر الدول ، دون بيت مال يسمى مال المظالم ، وليس عهد ذلك ببعيد في الدولة التركية . فاذا عُلم هذا كان تمهيداً لما يأتي عن ثروة الحسن بن سهل ختن المأمون وكرمه الجم .

« للكلام صلة »

قسطاكي الحمصي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net